شعر ابي تمام في ميزان النقد القديم

الدكتور سالم الحمداني

نشر يسير به شعر يهذبه فكر يجول مجال الروح في البدن

« ابو تمام الطائي »

اذا فتشت عن ازدهار الادب العربي فما عليك الا ان تقرأ لشعراء القرنين الثالث والرابع الهجريين، فلا اخال الا انك واجد بغيتك في شعر مسلم وابي تمام والبحترى والمتنبى وغيرهم، وان اردت ان تظفر بحركة نقدية خصبة فاقرا ما اثاره النقاد حول شعر هؤلاء، ولااخالك ايضا الا واجدا ما تريد فيما شغل به النقاد انفسهم منذ القرن الثالث الهجرى حتى هذا اليوم .

ولست ارى حركة اخصب ولا اروع ولا اوسع من تلك الحركة التي اثارها شعر ابي تمام، لقد شغل شعر الرجل المشرق الاسلامي كما شغل مغربه وانهمك الكتاب والنقاد في دراسة هذا الشعر وكان نتاج ذلك حركة نقدية خصبة لم تشهدها كل عصور الادب من قبل .

ومن هنا، كان شعر ابي تمام مثار حركة نقدية لا تزال اصداؤها تعكس آراء النقاد، منذ القرن الثالث الهجرى حتى عصرنا هذا. ولئن احتفظ تاريخ الادب العربي، منذ ذلك العهد، بنتاج نقدى ضخم اثاره مذهب ابي تمام فذلك لا يعنى ان حركة النقد حول هذا الشعر قد اكتفت بما تركت من تراث نقدى اصيل ولا يعني ايضا ان تلك الحركة النقدية الواسعة قد اتت على كل ما

في شعر الرجل من روعة وابداع فلا زال شعر الشاعر يوحي باروع الخطرات النقدية لدى النقاد ولا زال النقاد حتى هذا العصر يجدون فيه مجالات نقدية يستطيع كل عصر ان يضيف الى ما سبق وان ينقد بروح العصر نفسه ما كان على بقية العصور من قبله، ذلك ان شعر ابي تمام يخفي بين طياته من الافكار والمعاني والصور ما يجعل اثره يمتد الى ابعد العصور .

ولسنا نريد ، هنا، ان نبحث عن تاريخ النقد من خلال شعر ابي تمام ولكننا نريد ان نضع شعر ابي تمام في ميزان النقد القديم لندرس الاثار التي تركها في ذلك النقد ولنتعرف على مذهب الرجل من خلال تلك الحركة النقدية الواسعة التي اثارها شعره .

ان اية دراسة عصرية لشعر ابي تمام لا بدلها، في راينا، ان تاخذ بنظر الاعتبار نقطتين في غاية الاهمية :

الاولى : ثقافة ابي تمام التي تتصل بالفلسفة والمنطق وعلم الكلام والتاريخ وغير ذلك مما انعكس اثره في شعره بل وجه فنه في كثير من الاحيان وهذا يفيدنا في انصاف الرجل مما اثاره حوله نقاد عصره . ومن اجل ذلك خاصموه وانتقصوا من قيمة شعره .

وثانيتهما : ان نفهم روح العصر الذى عاش فيه ابو تمام لنرى هل كان شعره يتلاءم مع التيار الادبي العام الذى كان يترسمه العلماء والادباء والنقاد؟ وهذه النقطة تفيدنا في الحكم على الذين نقدوا شعره، فخاصموه في مذهبه. وفيما يخص هذه الناحية، فالمعروف ان اشد الناس نقدا للشعر هم الرواة واللغويون ثم الشعراء «١» وقد كان اكثرهم لا يتصلون بالثقافة الحديثة، فكرهوا الحديث على هذا الاساس واحبوا ما اتصل بعامود الشعر العربي وآثروه على ما يتصل بعمود الفلسفة والثقافة الحديثة فهؤلاء كانوا يترصدون للشعراء ويراقبون شعرهم ليروا الى اى حد كان هؤلاء الشعراء يخضعون لقواعد الشعر وقواعد اللغة؟ فاذا ما شذ شاعر عن تلك القواعد، صار في نظرهم خارجا عن طريقتهم

---

(١) شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٤٠ .

وصار شعره شاذا نابيا عن ذوق العصر وطريقته، وفي مثل هذه الحال يصير الشاعر هدفا للخصومة، ويتعرض شعره للنقد والتجريح .

وعلى العموم، فان جميع النقاد القدماء من لغويين ونحويين ورواة لم يستسيغوا من الشعر ما خرج على روح العصر، ولم يقبلوا ما نبا عن الذوق العام الذى الفوه وتعودوه، ومن هنا، كانت خصومتهم لشعر ابي تمام وهو دون ريب قد كسر الطوق الذى اعتمدوه اساسا لذوقهم. وخرج على ما اعتادوه من شعر سهل ومطبوع، يفهم دون اعمال فكر او اجهاد عقل، او غوص الى الاعماق .

ومن هنا، وقفوا لابي تمام بالمرصاد وخاصموه وتعصبوا عليه، بل تعدوا الى اكثر من هذا حين رفض بعضهم كثيرا من شعره. ولكن يجب الا نتصور ان هذا الموقف من جانب الخصوم كان سببه فن ابي تمام وخروجه على قواعد النظم المألوف. فان بعضهم، وخصوصا الشعراء، كانت تدفعهم الغيرة لمخاصمته. لان ابا تمام لم يكن شاعرا عاديا، يأخذ مكانه من الشهرة كما يأخذون، ولعل الاهم من ذلك ان الشعر كان مصدر رزق لكثير من الشعراء، فكان وجود ابي تمام يسبب ضيقا لهؤلاء لان الواحد منهم لم يكن ليستطيع الحصول على ما يريد في حضور ابي تمام. من ذلك ما اورده صاحب الاغاني من ان «١» « احدا ما كان يقدر ان يأخذ درهما بالشعر في حياة ابي تمام، فلما مات اقتسم الناس ما كان يأخذ » .

ومهما تكن اسباب الخصومة لابي تمام. فان عددا كبيرا من نقاد الشعر ورواته قد اجمعوا حملة شعواء على الشاعر، فمنهم من كان يدفعه حقده وكراهيته كدعبل بن علي الخزاعي، فقد كان يدفعه حسده لان يخاصمه. بل يرفض شعره. ويقول حين سئل عنه : « ٢ » لم يكن ابو تمام شاعرا انما كان خطيبا وشعره بالكلام اشبه منه بالشعر. وذكر محمد بن داود

---

(١) الاصفهاني ، الاغاني ، ١٥/٩٨ .

(٢) الصولي ، اخبار ابي تمام ، ص ٢٤٤ .

ان دعبلا كان يميل عليه ولم يدخله في كتابه « كتاب الشعراء » ومن هؤلاء الخصوم كان ابن الاعرابي اللغوى المشهور. فقد كان هذا شديد الحملة عليه، بسبب خروجه على كثير من قواعد اللغة. وكان يقول عنه: « ١ » « ان كان هذا شعرا فما قالته العرب باطل ».

ويبدو ان علماء اللغة كانوا من اشد خصوم شعر ابي تمام. ولذلك لم تشفع له عندهم مئات من قصائده وفرائده، كانوا هم انفسهم يعجبون بها على انها لغيره. فاذا احسوا انها لابي تمام، صبوا عليها جام غضبهم. وغيروا فيها رأيهم. فقد « ٢ » « حدث عبد الله بن المعتز قال: حدثت ابراهيم بن المدبر ورايته يستجير شعر ابي تمام ولا يوفيه حقه، بحديث حدثنيه ابو عمر بن ابي الحسن الطوسي وجعلته مثلا لهم قال: وجه بي ابي الى ابن الاعرابي لاقرأ عليه اشعارا، وكنت معجبا بشعر ابي تمام. فقرأت عليه من اشعار هذيل، ثم قرأت ارجوزة ابي تمام على انها لبعض شعراء هذيل وعاذل عذلته في عذله فظن اني جاهل من جهله

حتى اتممتها فقال: اكتب لي هذه، فكتبتها له ثم قلت: احسنة هي؟ قال: ما سمعت باحسن منها. قلت: انها لابي تمام. فقال: خرق خرق ».

ويظهر من هذا النص ان ابن الاعرابي هذا لم يطعن في القصيدة، بل اعجب بها، الا ان بغضه لابي تمام هو الذى دفعه الى هذا الفعل. ولو اننا حاولنا ان نضع مثل هذا التصرف في اى ميزان نقدى سليم، لما حكمنا على الرجل الا بالتعصب والحقد.

على ان بعض الخصوم لم يكن يدفعهم غرض الى رفض شعر ابي تمام. سوى تعصبهم للقديم. وخروج ابي تمام عليه، وكسره طوقه. من هؤلاء نذكر الاصمعي اللغوى والراوية الثقة المشهور. فقد جاء في الموازنة ان « ٣ » « اسحاق بن ابراهيم الموصلي انشد الاصمعي:

---

(١) المصدر نفسه، ص ٢٤٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧٥.

(٣) الامدي، الموازنة ص ٢٣.

هل الى نظرة اليك سبيـــل فيروى الصدى ويشفي الغليل
ان ما قل منك يكثر عنـدى وكثير ممن تحب القليـــل

فقال الاصمعي: لمن تنشدني؟ فقال: لبعض الاعراب. قال: والله هذا هو الديباج الخسرواني. قال: فانهما لليلتهما. فقال: لا جرم والله ان اثر الصنعة والتكلف بين عليهما».

ولسنا نريد، هنا، لان نتعرض الى اخبار هؤلاء الخصوم، فهي كثيرة جدا. ولكننا نذكر منهم ابراهيم بن المدبر وابا سعيد المكفوف، وعبد الصمد ابن المعذل وديك الجن وابن الخثعمي والقاسم بن مهرويه وهؤلاء الذين اشرنا اليهم كلهم من نقاد القرن الثالث، اي انهم عاصروا ابا تمام، او عاشوا في عصره، فمنهم من دفعه حرصه على مذهب العصر الى خصومة ابي تمام، وهم الشعراء ومنهم من خاصمه لحسده له على مكانته وشهرته. ولا شك ان الامثلة التي ضربناها لندل بها على خصومة هؤلاء لشعر ابي تمام، تدل على ان النقد على هذا العصر يشوبه التأثر الشخصي والنقد الذاتي الذي لا يخضع الى موازين النقد البناء.

على اننا اذا اجتزنا هذا القرن الى غيره من القرون، خصوصا القرن الرابع الذي استوت فيه اضخم عملية للنقد العربي المنهجي، وجدنا الناحية التأثرية، والنزعة الشخصية تخف الى حد بعيد. ولعل مرد ذلك هو ان نقاد القرون التالية هؤلاء. قد بعد العهد بينهم وبين ابي تمام، اي زالت الاسباب الشخصية التي توفر عليها النقد في القرن الثالث.

ومن ناحية اخرى، فان عملية النقد قد استوى عودها، واستقر امرها الى حد بعيد، بفعل استواء الحضارة وتطورها وتقدمها. اي ان روح العصر كادت ان تتقبل مذهب ابي تمام او على الاقل لم ترفضه بل تناقشه وتنقده وترده الى اصوله، وتربط ما بينه وبين ثقافة العصر، وتعلل فتقبل او ترفض. وهذا ما وجدناه عند اكثر النقاد الذين عرفتهم كل عصور الادب، من مثل الامدي صاحب كتاب الموازنة، رغم ما نشم في رائحة نقده من تعصب

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

مدحي له وشغفي به، في قديمه وحديثه، احسن من قول ابي تمام في المعتصم، ولا ابدع معاني، ولا اكمل مدحا، ولا اعذب لفظا ثم انشد.

فتح الفتوح تعالى ان يحيط به نظم من الشعر او نثر من الخطب

ثم اخذ يروي القصيدة. فلما فرغ منها قال: «هل وقع في لفظة من هذا الشعر خلل؟ كان يمر للقدماء بيتان يستحسنان في قصيدة فيجلون بذلك، وهذا كله بديع جيد».

ولا شك ان في كلام الحسن بن وهب هذا انفاسا نقدية جديدة لم نألفها عند القدماء. وقد نبه هو اليها حين قال: «كان يمر للقدماء بيتان ....الخ».

وهو يشير بذلك الى الخطرات النقدية القديمة التي كانت تتسم بالسرعة والفردية والذاتية البعيدة عن النظرة الشاملة الدقيقة..

وكان ممن فضله من نقاد القرن الثالث. علي بن الجهم وعمار بن عقيل، وابن الرومي، ومحمد بن عبد الملك الزيات. ومحمد بن حازم الباهلي. «١»، وغيرهم.

واذا تجاوزنا ذلك الى القرن الرابع وقفنا امام حشد كبير من النقاد الذين اعجبوا بشعر ابي تمام وشغفوا بمذهبه الجديد. ويطالعنا من هؤلاء نقاد لهم وزنهم لافي تاريخ النقد فحسب، بل في تاريخ الشعر والكتابة، وكل فنون الادب، من امثال: ابن جني وعلي بن عيسى الرماني، والخالديين. والحاتمي وابن العميد والصاحب بن عباد والمرزباني، وحتى الجرجاني فهؤلاء كلهم اكبروا الى حد بعيد ماذهب اليه ابو تمام في فنه الجديد.

ودليل اعجاب هؤلاء بشعره أن بعضهم تقدموا لشرحه، وبعضهم الاخر قام بشرح حماسته. من ذلك ماقام به ابن جني حين الف كتابه «التنبيه في شرح مشكل ابيات الحماسة» وكتابه الاخر «المبهج في شرح اسماء رجال الحماسة» ثم «المشكل في شعر ابي تمام» وهذا دليل على اهتمام الرجل بشعر هذا الشاعر. وقريب من ذلك ما قام به علي بن عيسى الرماني حين شرح

---

(١) انظر: الصولي، اخبار ابي تمام.

حماسته . ودافع عن سرقاته . اما الخالديان «١» فانهما اعجبا بشعر ابي تمام . ولذلك تعمدا ايراد الكثير من شعره وكانا يتعهدان كل بيت من ابياته او معنى من معانيه ، بما يستحقه من الثناء بالعبارات المعبرة عن الاعجاب ويبدو ان ابا العلاء المعري كان معجبا هو الاخر بشعر ابي تمام . فقد مدحه في رسالة الغفران «٢» «لانه كان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ ، مستتبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار ...

وقد علق الدكتور ربداوى على ذلك بقوله : ماأظن ان ناقدا لخص مذهب ابي تمام باوجز مما ذكره المعري» . حتى صاحب الاغاني ، فانه يشيد بشعر ابي تمام ، ويكبر علمه . ويعجب من فضله . وقد وقف يسفه اولئك الذين طعنوا بشعر ابي تمام . ويصفهم بالجهل والحماقة اذ يقول : «٣» «واقوام يتعمدون الردىء من شعره . فينشرونه ، ويطوون محاسنه ، ويستعملون القحة والمكابرة في ذلك . ليقول الجاهل منهم : انهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه الا بادب فاضل وعلم ثاقب » .

ويلاحظ ان النقد منذ نهاية القرن الرابع الهجري ، بدأ يتحول الى نقد بلاغي . يعتمد في اساسه على دراسة اعجاز القرآن . ولذلك وجدنا المتأخرين من نقاد هذا القرن اكثرهم من البلغاء . من امثال : العسكري والرماني . وصار نقدهم للشعر يدور حول قضايا اللفظ والمعنى في اكثره .

وتبعهم في ذلك نقاد القرن الخامس ، وعلى رأسهم ، الباقلاني وعبد القاهر . ولذلك وجدنا اكثر النقاد من البلاغيين يقفون ضد ابي تمام في فنه ، خصوصا منهم انصار اللفظ ، كابي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي . ولذلك وجدنا عبدالقاهر يقف من ابي تمام موقفا وسطا «٤» «فهو لا يقف موقف اللائم المؤنب لابي تمام الا عندما يراه ساعيا وراء اللفظ . واما في حوكه

---

(١) محمود ربداوي ، الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ، ص٢٩٦ .
(٢) المصدر السابق ، ص٤٢٤ .
(٣) الاصفهاني : الاغاني ، ج١٦/٣٨٣ .
(٤) محمود ربداوي : الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ، ص٣٧٩ .

للمعاني . فانه يبارك عمله ويستشهد بصنيعه على المستحسن منها ، وخاصة في احكام ابي تمام للمعاني وتركيزه للافكار على شكل حوكه» . وطالما اننا قد ذكرنا ابن سنان كواحد من نقاد شعر ابي تمام، وهو واحد من رجالات القرن الخامس فمن المهم ان نشير الى ، نقاد هذا القرن الذين كان نقدهم امتداداً لكثير من نقد القرن الرابع ولا اعتقد انني ابالغ في هذا القول حين اتذكر من هؤلاء النقاد: المرزوقي والعميدى والشريف المرتضى. وهؤلاء كلهم كانوا انصارا لابي تمام . ودعاة لشعره الجيد . ويكفي ان يكون المرزوقي وحده حاملا للواء فن ابي تمام. فهو من اشهر من ارتبطت اسماؤهم بهذا الشاعر في شرحه لحماسته ولذلك وجدنا الدكتور ربداوى يقول فيه : «(١)» «ان المرزوقي كان خير من تصدى لشرح دقائق ابي تمام وغامضه . وكان خير من نقد فن ابي تمام ودافع عنه» .

اما الشريف المرتضى فقد كان من اشد المتحمسين لابي تمام . ولمذهبه وقد وقف يرد على كل الذين تصدوا لشعر هذا الشاعر . ودافع بحرارة لاتهمد.

ومن المهم . ونحن نتعرض لاتجاهات هؤلاء النقاد، ان نشيد بجهود النقاد المغاربة الذين ساهموا في اكبر عملية نقدية اثارها مذهب هذا الشاعر . وابرز مايطالعنا من اسماء هؤلاء : ابن رشيق صاحب كتاب «العمدة» والحصرى صاحب كتاب «زهر الاداب» . وكلا الناقدين كان معجبا بفن ابي تمام . ونصيرا لاتجاهه . وقد استشهد كل منهما بشعر الشاعر في كلامهما على الشعراء المحدثين .

واذا كنا قد اشرنا الى ان هؤلاء النقاد قد انقسموا الى انصار وخصوم . فذلك لايعني ان اتجاهات النقد حول شعر ابي تمام كانت حدية الى هذه الدرجة فتاريخ الحركة النقدية يحتفظ لنا باسماء وقفت موقفا وسطا من شعر ابي تمام فقد ذكر الصولي «(٢)» «ان ابا حاتم السجستاني انشد شعرا لابي تمام ،

---

(١) المصدر السابق : ص٤١٨ .

(٢) الصولي : اخبار ابي تمام، ص٢٤٤ .

فاستحسن بعضه واستقبح بعضه . وجعل الذي يقرؤه يسأله عن معانيه فلا يعرفها ابو حاتم فقال : ماأشبه شعر هذا الرجل الا بثياب مصقلات خلقان . لها روعة وليس لها مفتش» .

وهذا ايضا «١» عبد القاهر لم يبرم البرم كله لدقيق معاني ابي تمام ولا لغامض افكاره ، وانما يشدد نكيره عليه لتعسفه في اللفظ ، لان اللفظ ليس ما يرفض عبد القاهر » . وهذا الامدي شيخ النقاد — وهو ممن اتهموا بالتعصب على ابي تمام — يكتب في فضل الشاعر «٢» :

«وجدت اهل البصرة من اصحاب البحتري ، ومن يقدم مطبوع الشعر دون متكلفه ، لايدفعون ابا تمام عن لطيف المعاني ودقتها ، والابداع والاغراب فيها ، والاستنباط لها ، ويقولون : انه وان اختل في بعض مايورده فان الذي يوجد فيها من النادر المستحسن ، اكثر مما يوجد من السخيف المسترذل» .

وليس من ذكرنا من هؤلاء المعتدلين وحدهم من وقفوا هذا الموقف الوسط ، فان كثيرين ممن خاصموا ابا تمام في شعره قد شادوا بجيده خصوصا مالا يتعارض وذوقهم واتجاههم. وكثيرون ممن تعصبوا له وناصروه وقفوا يعنفونه وينقدون شذوذه ، ويأخذون عليه اغرابه وشذوذه . ومن هنا كان حكمنا على كثير من نظراتهم النقدية حكما يشهد لهم بالحذق ، وقوة الملكة وجودة الذوق. بقي علينا ، وقد انهينا اتجاهات النقاد في شعر ابي تمام ، ان نتعرف على ما هو اهم ... وذلك هو جانب التطبيق العملي لهؤلاء النقاد . اي ماهي ابرز القضايا النقدية التي اثاروها حول شعر ابي تمام ؟ .

شغل النقد العربي منذ اقدم عصوره بقضية اللفظ والمعنى . ولازالت هذه المسألة تستحوذ على نقدنا الحديث فلا ينفك نقادنا المحدثون عن الحديث عما يسمونه الان الشكل والمضمون .

وانقسم النقاد مابين مؤيد للفظ كالجاحظ وابي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي وغيرهم وما بين مفضل للمعنى ، كعبد القاهر والمعري والشريف

(١) محمود ربداوي : الحركة النقدية ، ص٣٧٦ .

(٢) الموازنة : الامدي ، ص٣٩٧ .

المرتضى ، واغلب الذين انتصروا لمذهب ابي تمام .

المعاني :

وقد جاء انشغال النقاد بمعاني ابي تمام امرا طبيعيا دون شك . لان اشهر ما اشتهر به هذا الشاعر هو عنايته بدقة المعاني وتوليدها وغرابتها وعميقها .

هذه القضايا التي اشتهر بها مذهب ابي تمام . ولقد ادرك النقاد هذا منذ عهد الشاعر نفسه فحين «١» « سئل البحتري عن نفسه وعن ابي تمام قال : كان اغوص على المعاني مني وانا اقوم بعمود الشعر منه» . اما صاحب الاغاني فيصفه بانه : «٢» «شاعر مطبوع لطيف اللفظة دقيق المعاني ، غواص على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره» . وهو في رأي ابن الرومي «٣» شاعر يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لاتى بها»

وحين سئل ابن المعتز عن رأيه في البحتري قال : «٤» «فاما ان يشق غبار الطائي في الحذق بالمعاني والمحاسن فهيهات ، بل يغرق في بحره» ولخص ابن عماد الحنبلي رأيه في ابي تمام ، مستنداً على كلام ابن الاثير ، فقال : «٥» «اماابو تمام فرب معان وصيقل الباب واذهان . وقد شهد له بكل معنى مبتكر لم يمش فيه على اثر فهو غير مدافع عن مكانة الاغراب الذي يبرز فيه على الاضراب ... فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه اطاعته اعنة الكلام » .

فابو تمام اذن—باعتراف الجميع — له السبق على غيره في معاني الشعر ولكن هذا لا يعني ان النقاد قد سلموا له بالقيادة في هذا المجال . ذلك ان مذهب الشاعر في المعاني كان غير مذهب القوم . ومن هنا اثارت هذه القضية نقاشا طويلا استغرق مايقرب من خمسة قرون اي منذ القرن الثالث حتى القرن السابع ولازال اثر ذلك يمتد الى هذا العصر .

---

(١) الامدي : الموازنة ١٢/١ .
(٢) الاصفهاني : الاغاني ، ٩٦/١٥ .
(٣) ابن رشيق : العمدة ، ١٣٢/١ .
(٤) ابن المعتز : طبقات الشعراء ، ص٢٨٦ .
(٥) ابن عماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ص٧٢ .

ولعل نقاد هذا العصر اقرب الى طبيعة معاني ابي تمام . فمفاهيم نقدنا المعاصر في مراعاتها لظروف البيئة وثقافة الشاعر واباحتها لحرية الفنان وحرية تعبيره . ثم ما وصل اليه النقد من تطور ونضوج ، كل ذلك جعل نقادنا المعاصرين يباركون مذهب ابي تمام في معانيه ، بل ادى بهم الى ان يفتحوا مع القدماء باب المناقشة فاذا هم ،في اغلبهم ،انصار لمذهب الشاعر بل متعصبون لمسلكه «١» .

الاغراب:

واول ما اثاره النقاد القدماء بشأن معانيه مسألة الاغراب والتعقيد والغموض . وقد اعتبر الامدي ذلك مأخذا على الشاعر واستشهد على ذلك في ماذكره من ان «٢» « ابن الاعرابي كان شديد التعصب عليه ، لغرابة مذهبه ولانه كان يرد عليه معانيه ما لايفهمه ولا يعلمه . فكان اذا سئل عن شيء منها يأنف ان يقول : لا ادري فيعدل الى الطعن عليه » . ولعل قصة ابي العميثل الذي قال لابي تمام بعد سماعه احدى قصائده : لم تقول من الشعر مالا يفهم ؟ فرد عليه ابو تمام : ولم لا تفهم مايقال ؟اشهر من ان ينبه عليها .

والواقع ان قضية الاغراب في شعر ابي تمام لم تكن مأخذا يحتج به خصوم ابي تمام فحسب ، فحتى انصاره يشيرون الى ذلك في كثير من الاحيان ، فقد ذكر الصولي وهو من اشد انصار ابي تمام ان : «٣» « ابا حاتم السجستاني انشد شعرا لابي تمام فاستحسن بعضه واستقبح بعضا . وجعل الذي يقرؤه يسأله عن معانيه فلا يعرفها ابو حاتم . فقال : مااشبه شعر هذا الرجل الا بثياب مصقلات خلقان لها روعة وليس لها مفتش » .

واذا كان المتحاملون قد خاصموا ابا تمام بسبب غموض معانيه ، بل

---

(١) انظر بشأن ذلك : شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في الشعر العربي ،وعمر فروخ : ابو تمام ونجيب البهبيتي ، حياته وحياة شعره .

(٢) الامدي ، الموازنة ، ١ / ٢٢ .

(٣) الصولي : اخبار ابي تمام ، ص ٢٤٤ .

اسقطوا شعره ايضا ، فان نقاد اخرين لم يروا في ذلك هنة كبيرة تستوجب مثل هذا الحكم ، فالجرجاني صاحب الوساطة . يرجح هذا الموقف ويرى ان الغموض مسألة اعتيادية فيقول : «١» « وليس في الارض بيت من ابيات المعاني لقديم او محدث الا ومعناه غامض مستتر . ولولا ذلك لم تكن الاكثير هامن الشعر . ولم تفرد فيها الكتب المصنفة ، وتشغل باستخراجها الافكار الفارغة . ولعله اراد بذلك ان يرد على الذين اسقطوا بتلك الحجة كثيرا من شعر ابي تمام «٢» : « ولو كان التعقيد وغموض المعنى يسقطان شاعرا لوجب الا يرى لابي تمام بيت واحد . فانا لانعلم له قصيدة تسلم من بيت او بيتين قد وفر من التعقيد حظهما ، وافسد به لفظهما ، ولذلك كثر الاختلاف في معانيه » .

واما نقادنا المحدثون فلم يروا في هذا التعقيد مايشين شعر الشاعر ، بل ان اكثرهم حكموا على هذا الاغراب والتعقيد بالفتنة والروعة . وهذا شوقي ضيف يتحدث عن ابي تمام فيقول : «٣» « فهو يطلب الاغراب في فنه حتى يسبغ على شعره كل مايمكن من ايات الفتنة والروعة » بينما يرى انيس المقدسي : «٤» « ان من يطالع ديوانه فانه قد يقف حائرا امام طلاسمه وغموض معانيه ، حتى اذا راضت له بالدرس والتفكير رأى فيها مايلذه من صور جميلة ومعان رشيقة » .

وفي ظني ان اولئك الذين عابوا على الشاعر غرابة معانيه وغموضها . لم يدفعهم الى ذلك الموقف جهل بتلك المعاني ، وانما الذي دفعهم الى مثل ذلك هو ان الشاعر خرج على مألوف القوم في ايراد المعاني . وتمثل فيها ثقافته الواسعة المتشعبة ، التي لما تستقر في اذهانهم وعقولهم . ودليل ذلك انهم كانوا يستسيغون شعره على انه ليس له . فاذا كشفوا حقيقة قائلة غيروا رأيهم فيه .

---

(١) الجرجاني : الوساطة ، ص ٤٣١ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٣٠ .

(٣) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص ٢٢٦ .

(٤) انيس المقدسي : امراء الشعر في العصر العباسي ، ص ٢٠٧ .

كما اننا لانرى ان ابا تمام يتعمد ذلك الاغراب تعمدا ، ولا كان يقصده قصدا ، وانما تلك الغرابة ،في رأينا ، كانت تنهال عليه من روافد ثقافته الواسعة ، التي هضمها الشاعر كما لم يهضمها أي شاعر اخر .

واكثر هؤلاء النقاد تتبعا لاخطاء ابي تمام في المعاني هو الامدى ،فقد انفق في ذلك اربع عشرة صفحة من كتابه «الموازنة» . ولقد وفق الامدى في كثير مما اخذه على ابي تمام كتعليقه على قول الشاعر في باب الفراق : «(١)»

« دعا شوقه ياناصر الشوق دعوة فلباه طل الدمع يجرى ووابله

فقال الامدى في ذلك : اراد ان الشوق دعا ناصرا ينصره فلباه الدمع . بمعنى انه يخفف لاعج الشوق ويطفي حرارته . وهذا انما هو نصرة للمشتاق على الشوق . والدمع انما هو حرب للشوق لانه يثلمه ويتخونه ويكسر من حده » .

والواقع ،ان ،الامدى وفق كل التوفيق في معرفة خطأ المعنى في هذا البيت رغم ماينتحله البعض له من اعذار ، حتى ان هذا التوفيق قد دعا الدكتور محمد مندور لان يقول : «(٢)» : « لايتم هذا فقط عن ادراك للمعاني ومعرفة في تصريف الالفاظ وانما هو يظهر فطنة صادقة ومعرفة بالنفوس تستحق الاعجاب » .

الا ان التوفيق لم يحالف الامدى ماأخذه من هذا الجانب على ابي تمام فقد كانت تخونه الحجة ويضعف عنده التحليل احيانا ، من ذلك ما خطأ فيه ابا تمام في قوله «(٣)» :

ظعنوا فكان بكاى حولا بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيد

اجدر بجمرة لوعة اطفاؤها بالدمع ان تزداد طول وقود

فيعلق على ذلك بقوله : « وهذا خلاف ما عليه العرب وضد ما يفرق من معانيها » .

ولا شك ان ابا تمام كان يدرك ان ذلك مما ليس تعتاده العرب ، ولا مماوقع

---

(١) الامدي : الموازنة ، ١/٩٠ .

(٢) محمد مندور : النقد المنهجي عند العرب ، ص ١١٨ .

(٣) الامدي : الموازنة ، ٢/١١٩ .

في شعرهم ، ولكن ذلك فرضه عليه عقله ، وسعة ثقافته ، وعمق تفكيره ، الذي صار يخالف تفكير الكثيرين ممن عاصروه ، فنقدوه . ومن ذلك ماخطأ فيه الامدى الشاعر بقوله :

وهو اكثر النـاس اغضـــاء على نائـــل لـــه مسروق

فقال عمر فروخ معلقا على موقف الامدى : «١» « وكل مافي الامران الامدى لم يتعود ايضا ان يرى النائل «العطاء» مسروقا . ان مايكون مسروقا في رأيه هو المال المغصوب » وهو في الواقع تصريف خطأ من جانب الامدى لان قصد ابي تمام ، على اغلب الظن ، ان الممدوح يسرق ماله بعلمه لشدة كرمه وعطائه . وهذا مالم يتحمله عصر الامدى .

وقد كانت كثير من المعاني التي ناقشها النقاد القدماء على انها اخطاء من جانب ابي تمام ، مثار جدل عنيف ، افاد حركة النقد العربي ، ككثير من من القضايا الاخرى التي خلفت لنا تراثا نقديا واسعا .

ولعل هذه الاهمية تبرز في دفاع انصار الشاعر عما اتهمه به الخصوم . فقد كان الشريف المرتضى من المتحمسين لابي تمام ووقف يرد على كثير مما اتهم به الشاعر فقد جاء في اماليه « ٢ » : « ومن عجيب الامور ان ابا العباس احمد بن عبيد الله بن عمار ينشد هذه الابيات المفرطة في الحسن في جملة مقابح ابي تمام ، وما خرجه — بزعمه — من سقطه وغلطه . ويقول في عقبها :

ولم يسمع بشعر وصف فيه مصلوب باغث من هذا الوصف ، والابيات هي :

مازال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى
صلى لها حيا وكان وقودها ميتا ويدخلها مع الكفـــار
وليت من جهل شيئا عدل عن الخوض فيه و الكلام عليه . فكان ذلك اولى به . وابيات ابي تمام في نهاية القوة ، وجودة المعاني والالفاظ وسلامة السبك

---

(١) عمر فروخ : ابو تمام ، ص٥٤ .
(٢) الشريف المرتضي : غرر الفوائد ، ٢/٢٤٩ .

واطراد النسج .... الخ » .

وواضح ان عقلية العصر لم تتحمل معاني ابي تمام كما كان يريد . ولذلك وجدنا النقاد يقلد بعضهم بعضا ويستعير بعضهم اراء البعض الاخر .

ولعل هذا البيت الذي استعار فيه ابو تمام لباس الصوف للزمان — وهو بيت جميل دون ريب — قد جعل اغلب النقاد ينكرون عليه مافيه من معنى فاعتبروه خطأ لايحتمل النقاش والبيت هو قوله :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

وقد علق عليه المرزباني في موشحه فقال : « ١ » « وقد تقدم انكار الناس هذا البيت قبلي لما بين نصفيه من التباين في الاساءة والاحسان » .

بينما نجد الكثيرين ينكرون على الشاعر استعارته الجميلة في الشطر الثاني . وهو بلا شك مالم تتحمله عقولهم ولا ثقافتهم ، التي تخالف ثقافة ابي تمام .

بعد الاستعارة :

ومما يتعلق بالمعنى مااخذه النقاد القدماء على ابي تمام من بعد الاستعارة ، وخصوصا الامدى الذي وضع حدودا للاستعارة حين قال : ان القدماء يستخدمونها « ٢ » « فيما يقارب المشبه ويدانيه ، او يشبهه في بعض احواله او يكون سببا من اسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشيء الذي . استعيرت له وملائمة لمعناه » ومن هنا فقد وضع القدماء انفسهم في قوالب معينة لم يستطيعوا ان يفكوا انفسهم من اسارها ، بل لاحقوا كل من يخرج على هذه القوالب .

ولهذا كان واضحا ان يرفضوا اكثر استعارات ابي تمام ، لانهم لم يتقبلوا ان يكون للدهر حواش زاهية مشرقة ، ولم يتصوروا ابدا ان يستعار للثرى صفة العروس التي تزهى بحليها وزينتها في قول ابي تمام :

رقت حواشي الدهر فهي تمرمر وغدا الثرى في حليه يتكسر

---

(١) المرزباني : الموشح ، ص٢٨٢ .

(٢) الامدي : الموازنة ، ١/١٠٧ .

ومن هنا، كانت حملة الآمدي وغيره على استعارات ابي تمام . فاذا به ينهال على استعاراته ذما وتقبيحا وكان من جملةما وصف به استعاراته « المرذول والقبيح والردىء والفاسد والبعيد » وهذا دون شك ظلم في حق شاعر كان يريد ان يتطور في الصورة الشعرية فيتصور الاستعارة بغير مايتصورها هؤلاء الذين سدوا عليه منافذ الخيال وبعد التفكير .

وكان مما اتفق على ذمه اغلب القدماء قول ابي تمام :

فضربت الشتاء في اخدعيـــه ضربة غادرته عودا ركوبا

وقوله :

يادهر قوم اخدعيك فقـــد اضججت هذا الانام من خرقك

وقوله :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكانما لبس الزمان الصوفا

فهم لم يتصوروا ابدا ان يشبه الزمان بالانسان فيكون له اخدع ، ولم يستسيغوا ان يكون له رداء ، وان يلبس الصوف كما يفعل الانسان . او بالاحرى كما يقول شوقي ضيف وهو يشير الى الآمدي ، لم يستسيغوا هذه الاستعارات « ١ » « لأن فيها الاستعارة المكنية التي يرى فيها خروجا على عمود الشعر العربي » .

والواقع ان الآمدي لم يكن وحده حامل لواء هذا الرأى ، بل كان وراءه اغلب النقاد وخصوصا منهم البلاغيون الذين رسموا حدودا معينة للاستعارة .

ولذلك وجدنا ابا هلال العسكرى يذم استعارات ابي تمام هذه يعيبها عليه ويضرب امثلة لهذه الاستعارات المسرفة في رأيه فيقول : « ٢ » « وقد اكثر ابو تمام من هذا الجنس اغترارا بما سبق منه في كلام القدماء ، مما تقدم ذكره فاسرف . فنعي عليه ذلك وعيب به . وتلك عاقبة الاسراف ، فمن ذلك قوله :

---

(١) شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، ص٢٣٧ .

(٢) ابو هلال العسكري : الصناعتين ، ص٣٠٣ .

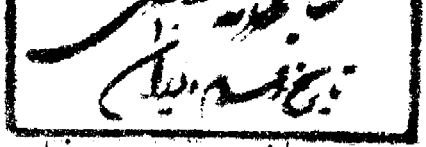

يادهر قوم اخدعيك فقد اضججت هذا الانام من خرقك

وقوله :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصرفا

وقوله :

فضربت الشتاء في اخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا

ثم قال بعد ذلك : وقد جنى ابو تمام على نفسه بالاكثار من هذه الاستعارات واطلق لسان عائبه ، واكد له الحجة على نفسه .

اما الباقلاني فيعلق على البيت الاخر بقوله «١» : « فهذا وما اشبهه انما يحدث من غلوه في محبته الصنعة حتى يعميه عن وجه الصواب » .

ونحن لا نشك ان في مثل هذه الاستعارات غرابة على عصر ابي تمام ولكن هل من لوازم الفن والنقد ان نقول للشاعر الذي تتدفق منه هذه الصور وتتمثل في شعره مثل هذه الاستعارات التي تدل على سعة ذهنه وعمق فكره : قف مكانك والتزم حدود العصر في صوره وفي استعاراته وفي ذلك جناية على الادب قبل ان يكون ظلما للاديب نفسه ؟ ! .

ولكن هذا لا يعني ان القدماء كلهم نهجوا هذا المنهج في رفض استعارات ابي تمام وتقبيحها ؛ فان اخرين وقفوا مع ابي تمام يشدون على يده ويفسرون مذهبه في استعاراته. من ذلك البيت الذي قال فيه ابو تمام :

شباب رأسي ، ومارأيت مشيب الرأس الا ممن فضل شيب الفؤاد

وقد قال فيه الجرجاني في وساطته : « ٢ » « وهذا مما استقبح من استعاراته » ويقصد استعارة الشيب للفؤاد وقد فسر عمر فروخ كلام صاحب الوساطة بقوله : « ٣ » «ولعل الجرجاني قد اتى في ذلك من استغراب نفر من جلساء احمد بن ابي دؤاد لهذا البيت.... قال بعضهم : وكيف يشيب الفؤاد... وقد صرف التبريزي البيت اذ قال فيه : اي ما شبت للكبر انما للهموم»

---

(١) الباقلاني : اعجاز القرآن ، ص١٠٨ .

(٢) الجرجاني : الوساطة ، ص٢٥٠ .

(٣) عمر فروخ : ابو تمام ، ص٦٢ .

ولا شك ان التبريزي قد وضع يده على عين الصواب لانه خير من تفهم مذهب ابي تمام وفسر شعره.

ابتداع المعاني :

وقد اشار النقاد فيما تحدثوا فيه عن معاني ابي تمام ، الى ابتداعه للمعاني ، فقال ابن الاثير «١» : «اما ابو تمام فانه رب معان وصيقل الباب واذهان، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ولم يمش فيه على اثر».

لكن ذلك لا يعني ان كل النقاد سلموا للشاعر بالريادة، رغم ان ما اشتهر به ابو تمام بانه شاعر المعاني فقد «٢» « نقل الامدي عن محمد ابن العلاء السجستاني انه قال: وليس لابي تمام معنى انفرد به واخترعه الا ثلاثة معان ».

غير ان الامدي يخالفه في هذا ويرى «٣» : «ان له على كثرة ما اخذه من اشعار الناس ومعانيهم مخترعات كثيرة وبدائع مشهورة». ولا شك ان الذي دفع السجستاني الى هذا الادعاء هو حنقه عليه وخصامه له؛ اذ المعروف عن ابي تمام، انه صاحب المعاني الذي لا يجاريه اي شاعر قبله ولا بعده. ولعل ابن الاثير كان اكثر توفيقا في حديثه عن ابتداع المعاني اذ اخذ بنظر الاعتبار مسألة توارد الخواطر . ورفض ان تكون المعاني موقوفة على القدماء «٤» فاذا قيل: ان المعاني المبتدعة سبق اليها ولم يبق معنى مبتدع عورض ذلك بما ذكرت ... والصحيح ان باب الابتداع للمعاني مفتوح الى يوم القيامة .. وكذلك يجرى الامر في غير ما اشرت اليه من معان ظاهرة، تتوارد الخواطر عليها من غير كلفة، وتستوى في ايرادها كقول ابي تمام:

لا تنكروا ضربي له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فالله قد ضرب الاقل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

(١) ابن الاثير : المثل السائر ، ٣/٢٢٧.
(٢) الامدي : الموازنة : ١/١٣٣ .
(٣) الموازنة : ١/١٣٤ .
(٤) ابن الاثير : المثل السائر، ٣/٢١٩ - ٢٢٠ .

فان هذا معنى مخصوص ابتدعه ابو تمام.

وانطلاقا من هذا الكلام، فقد رد ابن الاثير بصورة غير مباشرة على الذين يقللون من مقدرة ابي تمام على ابتداع المعاني «١» : «وقد قيل ان ابا تمام اكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني ، وقد عددت معانيه المبتدعة فوجدت ما يزيد على عشرين معنى ... وما هذا من مثل ابي تمام بكبير فمن ذلك قوله:

واذا اراد الله نشر فضيلة طويت اتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود

وقوله:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي

وقد مثل له لذلك بابيات كثيرة .

وابن الاثير هذا عجيب في اهتمامه بقضية المعاني والاشارة الى ابتداعها . ونحن نلمس من خلال ذلك انه كان معجبا بمعاني ابي تمام اعجابا شديدا، لانه كان يتمثل بكل ضرب من ضروب موضوعاته في المثل السائر بابيات من شعر ابي تمام، لا بل نحن نعجب من هذا الرجل الذى ابدى نظرات فريدة في مسألة المعاني. ففي مكان اخر من كتابه قسم المعاني قسمين، وتحدث عن القسم الاول فيها، وهي المعاني المبتدعة، ليؤكد اكثر من مرة، ان ابا تمام كان صاحب معان مبتدعة فقال : «٢» «الاول يبتدعه مؤلف الكلام من غير ان يقتدى فيه بمن سبقه، وهذا الضرب ربما يعثر عليه عند الحوادث المتجددة ويتنبه له عند الامور الطارئة فمن ذلك ما ورد في شعر ابي تمام في وصف مصلبين :

بكروا واسروا في متون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم ابدا على سفر من الاسفار

وفي رأينا ان هذا الابتداع في المعاني مؤداه كثرة تجارب الشاعر، بكثرة اسفاره، وسعة ثقافته، المتنوعة واختلاطه الشديد باجناس شتى وطوائف كثيرة

(١) المصدر نفسه : ٢/٢٢٠
(٢) ابن الاثير : المثل السائر، ٢/٧ .

وذلك كله، دون ريب، فتح امامه افاقا واسعة قلما توفرت في غيره.

السرقات :

وموضوع السرقات من اخطر الموضوعات التي عالجها النقاد القدماء ولا جدال في ان تلك المعالجة كان ينقصها الانصاف تارة، والحصافة النقدية تارة اخرى. وربما كانت في كثير من الاحيان نسبية. فربما حكم ناقد على بيت بانه مسروق، فاذا بناقد آخر يعتبر المعنى شائعا لا اثر للسرقة فيه، او ان معنى البيتين مشترك. او فيه تزارد خواطر ..... وهكذا.

وفي ذلك يقول الصاحب بن عباد: «١» «فاما السرقة فما يعاب بها لاتفاق شعراء الجاهلية والاسلام عليها».

والمتحاملون على ابي تمام اتهموه جميعا بسرقة معاني الشعراء. ولقد استغلوا في رأينا ما جمعه من شعر القدماء في حماسته. فاتهموه بانه كان يغير على تلك المعاني وفي ذلك قال المرزباني «٢»: «وللطائي سرقات كثيرة احسن في بعضها واخطأ في بعضها ولما نظرت في الكتاب الذى الفه في اختيار الاشعار وجدته قد طوى اكثر احسان الشعراء. وانما سرق بعض ذلك فطوى ذكره، وجعل بعضه عدة يرجع اليها في وقت حاجته».

واكثر الذين فصلوا في سرقات ابي تمام. هو الامدى، فقد انفق فيه صفحات كثيرة من كتاب الموازنة. وبالرغم من تحامل الامدى على ابي تمام في مسألة السرقة الا اننا نلمس في ثنايا حديثه خطرات نقدية نزيهة، تدل على طول باعه في النقد، ومعرفته باشعار القدماء. فقد دافع عما «٣» «نسبه ابن ابي طاهر الى السرقة وليس بمسروق، لانه مما يشترك الناس فيه من المعاني ويجرى على السنتهم فمما نسبه الى السرقة وليس بمسروق قول ابي تمام :

الم تمت يا شقيق الجود من زمن فقال لي: لم يمت من لم يمت كرمه

(١) الصاحب بن عباد : الكشف عن مساوىء المتنبي، ص٤٣ .
(٢) المرزباني : الموشح، ص٢٨١ .
(٣) الامدي : الموازنة، ص١٢٠، ١٢١ .

وقال: اخذه من قول العتابي :

ردت صنائعه اليه هباتـه فكأنه من نشرها منشور

ومثل هذا لا يقال فيه مسروق لانه قد جرى في عادات الناس. اذا مات الرجل من اهل الفضل والخير. واثني عليه بالجميل ان يقولوا : ما مات من خلف هذا الثناء، ولا من ذكر بمثل هذا الذكر . وذلك شائع في كل امر وفي كل لسان » .

ونحن نعجب بهذه الروح النقدية التي لا تدل فقط على ملكته الواسعة، وانما تدل على انه كان يعرف طبائع الشعوب، وعادات الناس. ومن خلال ذلك كان يصدر نقده . ولعل صاحب الوساطة كان اكثر انصافا من غيره فيما يخص سرقات ابي تمام. فقد رد كثيرا مما اتهم به هذا الرجل على انه ليس سرقة . وقد جاء الجرجاني في هذا بعد الامدى في قوة ملكته النقدية. لكنه كان اقل عنفا من الامدى امام هفوات ابي تمام. ففي مكان من الوساطة يدافع عما اتهم به الشاعر بانه مسروق وهو قوله:

ابدلته ارؤسهم يوم الكريهة من قنا الظهور قنا الخطى مدعما

«(١)» «وقد عد هذا من سرقات ابي تمام ولست اراه كذلك لانه ليس فيه اكثر من رفع الرؤوس على القنا وهذا معنى مشترك لا يسرق ».

ومع ما قلناه في الامدى من انه كان يلح في نقده لسرقات ابي تمام . الا انه في كثير من الاحيان يقنعنا بالحجة والبينة ، وذلك حين يضعنا وجها لوجه . امام كثرة المعاني التي تشبه بيت ابي تمام فمن ذلك قوله « ٢ » : « وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها فهن يتبعنه في كل مرتحل

اخذه الطائي فقال :

وقد ظللت عقبان اعلامه ضحى بعقبان طير في الدماء نواهل

اقامت مع الرايات حتى كانها من الجيش الا انها لم تقاتل

(١) الجرجاني : الوساطة : ص ٢٣٠ .

(٢) الآمدي : الموازنة، ص ٦٢ .

فاتى في المعنى زيادة وهو قوله: « الا انها لم تقاتل » وجاء به في بيتين واخطأ ايضا في المعنى بقوله : « في الدماء نواهل » والنهل : هو الشرب الاول . والعلل : الشرب الثاني ، والعقبان لا تشرب الماء وانما تأكل اللحم. وقد ذكر المتقدمون هذا المعنى . فاول من سبق اليه الافوه الاودى، وذلك في قوله . . . الخ » .

وقد احتج لاثبات رايه بابيات للافوه الاودى والنابغة وحميد بن ثور وابي نؤاس ، ثم بين ما اخذه كل واحد من الاخر. وهو دليل خدمته في الشعر القديم ، وقوة ملكته اللغوية وحسن ادراكه لطبائع الاشياء .

وقد اثارت هذه الحملة — حملة السرقات — في مجال النقد ، فائدة لاتقل عن فائدة البحث في قضية اللفظ والمعنى . لان النقاد اخذوا يفسرون مظاهر السرقات وانواعها . وحين كانوا يريدون الدفاع عنها ، انتحلوا الاعذار لاصحابها فجعلوا لها اقساما وفروعا ، كالمعاني المشتركة وتوارد الخواطر . والنظر والتشبيه .... الخ . وخير من فصل في هذا الشريف المرتضى ، فقد كتب في طيف الخيال «١» «انه لاينبغي لمنصف ان يقول : هذا البيت مسروق المعنى من فلان ، لانه قاطع على مالا يأمن هذا ان يكون كذبا . فربما توارد فيه من غير قصد . والاولى ان يقال : هذا نظيره ومشبهه .

وهكذا يجب ايضا الا يطلق احد معنى من المعاني انه سابق اليه ، وان كان لم يسمع له نظيرا ولا عثر له على شبه . فان الخواطر لاتضبط ولا تحصى .

ومن ذا الذي يحيط علما بكل ماقيل وسطر وذكر ؟ والانصاف ان يقال : في مثل هذا المعنى ينفرد به فلان ... ومن اخرج اليه خاطره بعض المعاني من غير ان يكون سمعه ولا قرأه ، ولا احتذاه . فله فضل الاستخراج والاستنباط الدالين على قوة الطبع وصحة الفكر » . والمعروف ان الشريف المرتضى كان من اشد المتعصبين لأبي تمام وقد دافع عن سرقاته في اكثر من مكان .

---

(١) الشريف المرتضى : طيف الخيال ، ص١٤١ .

الالـــفاظ :

ونصيب الالفاظ في نقد القدماء . ليس اقل من نصيب المعاني ، ومن هنا كانت اهميتها في هذه الدراسة لاتقل عن اهمية دراسة المعاني . وقد تطرق القدماء في نقدهم لالفاظ ابي تمام الى اكثر من ناحية . فقد درسوها من حيث الضعف ومن حيث القوة . وعابوا فيها الوحشي والغريب . كما تطرقوا الى قوافي الشاعر ايضا . وحين وضع النقاد قواعد لالفاظهم الزموا الشعراء بقوالب معينة واساليب ثابتة كأنها لازمة من لوازم النظم الجيد . وحين كان الشاعر يخرج على تلك القواعد فانه يتعرض لمخاصمة النقاد ويصير شعره عرضة للنقد والتجريح . من ذلك ما اشترطه ابن رشيق في استعمال الالفاظ قوله «١» : « وللشعراء الفاظ معروفة ، وامثلة مألوفة ، لاينبغي للشاعر ان يعدوها ولا ان يستعمل غيرها » .

ويرى ابو هلال العسكري «٢» ان «الشأن ليس في ايراد المعاني ، لان المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي . وانما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسن بهائه ، ونزاهته ونقائه . وكثرة طلاوته ومائه ، مع صحة السبك والتركيب والخلو من اود النظم والتأليف ..... ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ماوصفناه من نعوته التي تقدمت » .

وما دام هؤلاء النقاد قد وضعوا شروطا للالفاظ — لا يجوز للشاعر ان يعدوها كما قال ابن رشيق ولا يقنعون بغير ماوصفوه منها كما قال العسكري — فان شعر ابي تمام لابد له ان يتعرض لنقد النقاد ، خصوصا وانه قد سار على هواه ، وانطلق من مبدأ مذهبه في التصنيع والزخرف والزركشة .

الغرابـــة :

ولعل اولى القضايا التي اخذها النقاد القدماء على الشاعر ما اسموه بغرابة

---

(١) ابن رشيق : العمدة ، ٢/٨٣ .

(٢) ابو هلال العسكري : الصناعتين ، ص٥٧ وانظر : البيان والتبيين الجاحظ ص٧٥ .

الالفاظ وتعقيدها ووحشيتها . والواقع ان هؤلاء النقاد لم يكرهوا هذه الالفاظ من حيث هي وحشية او غريبة . ولكنهم رفضوها في شعر المحدثين المتحضرين ورأوا ان هذه هي الفاظ البدو الجاهلين . فلا يجوز ان يستعملها شاعر متحضر كأبي تمام . ومن هنا وصف صاحب الوساطة ابا تمام بقوله « ١ »: « واظهر التعجرف وتشبه بالبدو ونسي انه حضري متأدب وقروي متكلف » .

ثم قال عنه بعد ذلك «٢» : « اذا اراد ان يجرى على سجيته جاءت الفاظ شعره فصيحة مألوفة . فاذا قصد التكلف كثرت في شعره تلك الالفاظ الغريبة الوحشية النافرة » . ومن هنا عدوا ابا تمام شاعرا متكلفا في الفاظه . لانه يتكلف الفاظ غيره ، ويبتعد عن الفاظ عصره «٣» « وكان ابو تمام يأتي بالوحشي الخشن كثيرا ويتكلف » .

ويبدو ان ابا تمام كان يتصنع هذه الالفاظ في صياغته تصنعا ينسجم مع مبدئه في التجديد ويتلاءم مع ثقافته التي تتطلب العمق ، والخروج على مألوف الناس . ومن هنا فقد اختلط في فنه الحوشي والتصنيع في التلوين البديعي . وذلك ماجعله شاذا في عصره ، خارجا على طريقة الشعراء في زمانه .

ويبدو ايضا انه تأثر بما جمعه من شعر الاوائل ، فاعجبه شعرهم واستهوته الفاظهم . ولذلك قال عنه الجرجاني «٤» « فانه حاول من بين المحدثين الاقتداء بالاوائل في كثير من الفاظه فحصل منه على توعير اللفظ فقبح في غير موضع من شعره ... فتعسف ما امكن وتغلغل في التعصب كيف قدر . ثم لم يرض بذلك حتى اضاف اليه طلب البديع ، فتحمله من كل وجه وتوصل اليه بكل سبب » .

ورغم اعجابنا بقابلية ابي تمام في اختيار الفاظه — والتي هي دليل على سعة ثقافته وطول باعه في معرفة اشعار القدماء — الا اننا لانمتلك امام نقد النقاد

---

(١) الجرجاني : الوساطة ، ص ٧٠ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٧١ .
(٣) ابن رشيق : العمدة ، ٢٦٦/٢ .
(٤) الجرجاني : الوساطة ، ص ١٩ .

سوى التسليم بالكثير مما اخذوه عليه . والا فكيف نحكم على شاعر عباسي متحضر يقول :

كان في الاجفلى وفي النقرى عر فك نضر العموم نضر الوحاد

الا ترانا نوافق المرزباني في تعليقه على البيت بقوله «١» « : وهذا من الكلام البغيض والغريب المستكره من البدوى . فكيف به اذا جاء من ابن القرية ؟ »

ومن اشد الذين تعرضوا لوحشي الالفاظ وغرابتها الامدى . والامدى هذا لم يترك هنة لابي تمام الا وتعرض لها بالنقد . وكثيرا ما اشتد بالقسوة على الشاعر . ولكننا احيانا لانمتلك الا ان نشفق على ابي تمام في الفاظه ، ونضم صوتنا الى الامدى . والامدى ليس كغيره يحكم بالعاطفة والهوى الشخصي ، وانما يصدر في اغلب الاحيان عن ذوق نقدى سليم مقنع ومما عابه على ابي تمام واستثقله قول الشاعر :

خان الصفاء اخ خان الزمان اخا عنه فلم يتخون جسمه الكمد .

وقد علق على البيت بقوله « ٢ » « فما اقبح ما اعتمد من الفاظ في البيت ، من اجل ان يشبهها ، وهو خان وخان ويتخون . وقوله : اخ واخا فاذا تأملت المعنى مع ما افسده من اللفظ لم تجد له حلاوة ولا فيه كبير فائدة . لانه يريد خان الصفاء اخ خان الزمان اخا من اجله اذ لم يتخون جسمه الكمد ونحو قوله :

يوم افاض جوى اغاض تغربا خاض الهوى بحرى حجاه المزيد »

الثقل والقبح :

ومما اخذه النقاد على ابي تمام ، ما اسموه ثقل الالفاظ وقبحها لثقلها وقد حاسبه عليها نصيره ابن الاثير وكان هذا معجبا بابي تمام . ولكن اعجابه به لم يحجب بينه وبين ما استثقله من الفاظ ، وانظر تعليقه على بيت ابي تمام الذي

(١) المرزباني : الموشح ، ص ٢٧٨ .
(٢) الآمدي : الموازنة ص ٢٧٧ .

يقول فيه :

قد قلت لما اطلخم الامر وانبعثت عسواء تالية عبسا دهاريسا

فقد وصفه بالقبح وقال «١» : « فلفظة : اطلخم . من الالفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين : في انها غريبة . وانها لفظة في السمع كريهة على الذوق . وكذلك لفظة : دهاريس ايضا» .

ورغم اعجاب ابن الاثير بشعر ابي تمام . الا ان نزاهة النقد كانت في كثير من الاحيان تغلب على هواه الشخصي . فاذا هو يصدر عن روح نقدى ، يتسم بسعة الافق وسلامة الذوق . خصوصا حين يقارن مايراه ثقيلا كريها من شعر ابي تمام . بشعر غيره الذي يراه لطيفا مقبولا . واقرأ تعليقه على بيت ابي تمام الذي عابه كثيرون من قبله وهو قوله :

يادهر قوم من اخدعيك فقد اضججت هذه الانام من خرقك

فقال ابن الاثير «٢» : « الا ترى انه وجد لهذه اللفظة في بيت ابي تمام من ثقل على السمع والكراهية في النفس . اضعاف ما وجد لها في بيت الصمة بن عبدالله الذي يقول فيه :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعت من الاصغاء ليتا واخدعا

من الروح والخفة والايناس والبهجة .

ونحن نضم صوتنا الى صوت ابن الاثير فنقول : ان بيت ابن الصمة دون شك اشد قبولا في الارواح ، واكثر خفة . ولكن من ذا الذي قال : ان ابا تمام لم يكن يدرك مثل هذا ؟ وهو في رأينا صدى لثقافته الممتزجة بالفلسفة والكلام والمنطق . ورغم هذا الذي اخذه ابن الاثير على الفاظ ابي تمام فان الناقد يعترف ان الفاظ صاحبه الشاعر من القوة ما لايحسن الاغضاء عنها . ولذلك فهو يعترف له بالفضل فيقول «٣» : « والالفاظ الجزلة تتخيل في السمع

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر ، ٢٣٥ .

(٢) ابن الاثير : المثل السائر ص١ — ٣٨٤ .

(٣) ابن الاثير : المثل السائر ، ص١ — ٢٥٢ .

كأشخاص عليها مهابة ووقار . والالفاظ الرقيقة ، تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين اخلاق ولطافة مزاج . ولهذا نرى الفاظ ابي تمام ، كأنها رجال قد ركبوا خيولهم . واستلأموا سلاحهم . وتأهبوا للطراد . وهي دون ادنى شك لمحات نقدية ناضجة تدل على طول باع الناقد في معرفة الالفاظ والاساليب وقد ادرك المحدثون ما في شعر ابي تمام من قدرة لغوية هائلة . فاذا هم يدهشون امام هذا السيل الواسع من الالفاظ الجزلة القوية . وفي ذلك يقول نجيب البهبيتي «١» : « وديوان ابي تمام من اغزر الدواوين واكثرها عدد لفظ . فان سعة مادته اللغوية تدعو الى الدهشة . وان الانسان ليسائل نفسه عن مقدار ماكان الشاعر يلم به من مفردات اللغة ، اذ كانت هذه المجموعة هي مقدار ماكان يجرى منها على لسانه ويستعمله في شعره » .

الجناس والطباق :

شعر ابي تمام نسيج متكامل في لحمته وسداه . فاهتمامه بعمق الالفاظ لم يلهه عن اهتمامه بجودة السبك وجمال التعبير . وقد الزمه جمال الصورة وتلوينها وتدبيجها ، ان يختار من الالفاظ ماتكون في شكلها وشيا جميلا يستهوى النفس . ومن هنا حرص ابو تمام على ان يصب في الفاظه كل ماهو جميل رقيق ، ومن هنا كان اهتمامه بالجناس والطباق . وقد اخذ عليه بعض النقاد شدة اهتمامه بالجناس والطباق ورأوا فيه اسرافا يخرجه عن وجه الصواب .

والواقع ان هذا اللون من التصنيع ليس جديدا في شعر ابي تمام ولا على عهده . لكن ابا تمام خالف في استعماله القدماء ، حين ربط التصنيع اللفظي ، وما قد يحدثه من روعة التصوير ودقة المعنى وهذا شيء لم يألفه القدماء من قبل ولا الفه نقاد عصره . ولذلك جعلوه مسرفا متجاوزا في جناسه وطباقه .

واقرأ ماقاله الباقلاني عن ابي تمام فيما يخص الجناس والطباق «٢» : « وربما

(١) ابو تمام : حياته ، وحياة شعره ، نجيب البهبيتي ، ص٢٣٦ .

(٢) الباقلاني ، اعجاز القرآن ، ص٥٣ .

اسرف في المطابق والمجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيره . حتى استثقل نظمه ، واستوخم رصفه ، وكان التكلف باردا والتصرف جامدا » .

اما الامدى نقد اكثر من الاستشهاد بما رآه جناسا ثقيلا ، وطباقا رديئا ، وشأنه في هذا هو شأنه في غيره مما رآه عيبا في شعر ابي تمام . وكان يستعمل في حكمه على الشاعر اقسى الالفاظ ، وانظر الى ذلك في قول ابي تمام :

قرت بقران عين الدين واشترت بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

فقال تعليقا على هذا التجنيس «١» : « فهذا كله تجنيس في غاية البشاعة والركاكة والهجانة » وامثال هذا كثير في كتاب الامدى .

وبرغم ما كان يأخذه ابو هلال العسكرى على ابي تمام في تصنيعه الا اننا نجد بين اونة واخرى لفتات نقدية توفي الشاعر حقه ففي حكمه على ابي تمام في هذا البيت يقول :

اصم بك الناعي وان كان اسمعا واصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

«٢» « وقالوا : هذا احسن ابتداء في مرثية اسلامية . وهذا بالطبع يقصد به جودة الطباق ايضا » .

اما ابن الاثير فقد كان من اكثر النقاد ايرادا لهذا اللون من تصنيع ابي تمام وقد ذكرنا ان الناقد كان يعجب بالشاعر . ولذلك اكثر ايراد شعره في مثله السائر . لكن ذلك الاعجاب لم يمنعه ان يوجه النقد الى صاحبه فيعيب عليه «غريب تجنيسه» و «كريه طباقه» ومما اورده لابي تمام على انه من جميل التجنيس :

فاصبحت غرر الايام مشرقة بالنصر تضحك عن ايامك الغرر

لكن ابن الاثير وغيره من النقاد لم يكشفوا عما وراء هذه الاستعارات والتجنيسات من صور جميلة موحية . لان ظلال المعاني التي قصد اليها ابو تمام بفعل ثقافته الواسعة الممتدة ، وعقله العميق المتزن ، كانت ابعد مما رآه

---

(١) الامدي ، الموازنة ، ص٢٦٨ .

(٢) ابو هلال العسكري ، الصناعتين ، ص٢٢٠ .

اولئك النقاد . ولذلك اكتفوا بايراد تلك التعليقات المقتضبة السريعة التي لا تستطيع ان تكشف عن روعة ذلك التصنيع .

اما ما اورده على انه كريه مستثقل فقول ابي تمام «١» :

ويوم ارشق والهيجاء قد رشقت من المنية رشقا وابلا قصقا

وقوله :

قرت بقران عين الدين واشترت بالاشترين عيون الشرك فاصطلما

ولا شك اننا نؤيد ابن الاثير فيما استثقله على البيت الاول . اما الثاني فبرغم ثقله وشدة تصنعه فان ابن الاثير ليس له الفضل في نقده فقدورد ذلك في نقد الكثيرين من قبله . ولكن ، هل اكتفى النقاد القدماء بما نقدوه من قضية اللفظ وقضية المعنى ، ام انهم تجاوزوهما الى اشياء اخرى ؟ لاشك ان شعر ابي تمام ومذهبه الجديد قد اثار اوسع عملية نقدية عرفها العرب — كما المحنا الى ذلك . ومن هنا فان هؤلاء النقاد لم يتركوا ابسط القضايا من شعر هذا الشاعر ، تمر دون ان يمسوها بالنقد الخفيف او العنيف ، فالقضايا التي اوردناها . والتي هي اساس نقد شعر ابي تمام ، لم تكن هي كل شيء وانما تعداها النقاد الى مسائل اخرى تتعلق بها وتعود اليها .

حسن الابتداء :

فقد اشاروا مثلا الى حسن الابتداء في شعر ابي تمام وبينوا ما هو جيد عنده ، وفسروا ما هو قبيح فيه . ولعل اكثرهم ، اتفقوا على ان قبح الابتداء في شعر الرجل . سببه غرامه بالبديع وتعلقه بالتجنيس «٢» « ومما يكره من الابتداء قول ابي تمام :

تجرع اسى قد اقفر الجرع الفرد ودع حسن عين يجتلب ماءها الوجد

وانما القى ابا تمام في مثل هذا المكروه ، تتبعه للتجنيس بين تجرع والجرع

(١) ابن الاثير ، المثل السائر ١/٣٤٤ .

(٢) ابن الاثير ، المثل السائر ، ٣/٩٩ .

وهذا دأب الرجل ، فانه كثيرا مايقع في ذلك » .

هذا هو رأي صاحبه وناصره ابن الأثير . ولعل النقاد كما قلنا قد اتفقوا في تعليل السبب ، فهذا المرزباني يرى هو الاخر ان ابتداءات ابي تمام المذمومة سببها غرامه بالتجنيس ومن قوله في ذلك «١» « فمن ابتداءاته المذمومة قوله : « خشيت عليه اخت بني خشين » . وهذا الكلام لايشبه خطاب النساء في منازلتهن . وانما اوقعه في ذلك محبته للتجنيس وهو بهجاء الناس اولى » .

لكن المشهور في ابتداءات ابي تمام . انها جيدة يصب فيها احيانا كل عواطفه وقوة ملكته . وقد حمد له ذلك اغلب النقاد وكادوا يتفقون — انصاره وخصومه — على ابتداءات معينة اشتهر بها ابو تمام من مثل قوله :

السيف اصدق انباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

او قوله :

الحق ابلج والسيوف عوار فحذار من اسد العرين حذار «٢»

التشـــبيه :

ولقد عني ابن الاثير في تشبيهات ابي تمام . ولم يمنعه اعجابه به من نقده وبيان سقطه في هذا الشأن . ولذلك وقف على كثير من تشبيهاته المعيبة فنبه عليها ، من مثل قول الشاعر يمدح :

وتقاسم الناس السخاء مجزءا وذهبت انت برأسه وسنامه

وتركت للناس الاهاب وما بقى من فرثه وعروقـــه وعظامه

وقد علق على البيت بقوله «٣» « : ان هذا التشبيه من اقبح ماسمعته . والقبيح الفاحش في البيت الثاني . وكل هذا التعسف في التشبيه البعيد دندنة حول معنى ليس بطائل فان غرضه أن يقول : ذهبت بالاعلى وتركت للناس الادنى ، او ذهبت بالجيد وتركت للناس الرديء » .

والواقع ان مااوقع ابا تمام في بعض الاحيان ، هو تدفق معانيه التي لم تترك لهمجالا ليرتب صوره ويقوم الفاظه. لكن ذلك لايعني ان هؤلاء النقاد كان

(١) المرزباني ، الموشح ، ص٢٧٩ .

(٢) انظر بشأن ذلك ، العمدة ، ٢٣٣/١ ثم انظر موازنة الامدي ووساطة الجرجاني .

(٣) ابن الاثير ، المثل السائر ، ١٥٣/١ .

يحالفهم الحظ في كل الاحوال . فمن جملة ماأخذه عليه اغلبهم قوله :

لا تسقني ماء الملام فانني صب قد استعذبت ماء بكائي

فقد عاب اغلب النقاد عليه هذا التشبيه الرائع لانهم انكروا ان يكون للملام ماء . وقد اورد ابن الاثير رأي النقاد فيه ، لكنه هو نفسه لم يرفضه او يستقبحه فقال : «١» « وقيل : انه جعل للملام ماء وذلك تشبيه بعيد . وما بهذا التشبيه عندي من بأس بل هو من التشبيهات المتوسطة التي لاتحمد ولا تلام . وهو قريب من وجه بعيد من وجه . اما سبب قربه ، فهو ان الملام هو القول الذي يعنف به الملوم لامر جفاه وذلك مختص بالسمع فنقله ابو تمام الى السقيا التي هي مختصة بالحلق . واما سبب بعد هذا التشبيه فهو ان الماء مستلذ . والملام مستكره . فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه » .

ونحن من جانبنا لانعتبر التشبيه بعيدا ، وانما نرى الشاعر قد ذهب الى ابعد مما يذهبون ، حين اوحت اليه بذلك روعة الصورة التي تصورها في ذهنه ، مما ليس في ذهنهم ولا في تشبيهاتهم كذلك فقد تطرقوا الى اغراض الشاعر ،وبينوا ما اجاد فيه وما استقبح منه وكادوا جميعاان يتفقوا على ان ابا تمام قد بز الشعراء في المدح ، واجاد في الرثاء ، ورأوا ان غزله ليس بجيد . وذكروا من فرائد مدحه قصيدته في مدح المعتصم التي اولها «السيف اصدق انباء من الكتب» وهي قمة المدح الرائع . وقصيدته في مدح عبدالله بن ابي طاهر التي اولها «هن عوادى يوسف وصواحبه» . وقد صارت علما في المدح .

لكن ذلك لايعني انهم استملحوا كل مدحه . فلقد عاب الجرجاني كثيرا من ابيات مدحه كقوله :

أأترك حاجتي غرض التواني وانت الدلو فيها والرشاء

مشيرا في ذلك الى تشبيه الممدوح بالدلو وهو قبيح وقوله :

ضاحي المحيا للهجير وللقنا تحت العجاج تخاله محرانا

وقوله :

تثفي الحرب منه حين يغلى مراجلها بشيطان رجيم

(١) ابن الاثير ، المثل السائر ٢/١٥٥ .

«١» « فهو يجعل الممدوح تارة دلوا وتارة محراثا ومرة شيطانا رجيما » .

اما صاحب العمدة فيجعل : «٢» « ابا تمام من المعدودين في اجادة الرثاء ويستدل على ذلك في قصيدة رثى بها محمد بن حميد فيقول :

الا في سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الثغر وانثغر الثغر

ولا شك ان ابن رشيق صاحب ذوق سليم ، والا لكان عابه على تكرار كلمة الثغر . وهو مما كان يحاسب به بعض النقاد القدماء . لكن تكرار الكلمة هنا جاءت رائعة قوية .

وعدوا ابا تمام ضعيفا في غزله وقد قال ابن رشيق في ذلك «٣» « ولم يكن لابي تمام حلاوة توجب له حسن التغزل . وانما يقع له من ذلك التافه اليسير في خلال القصائد » . لكنهم لم ينكروا غزله الجيد . فقد اورد له ابن الاثير قصيدة قال في تعليقه عليها . «٤» « وله في الغزل من الاستعارة مابلغ به غاية اللطافة والرقة . وذلك في قصيدته التي مطلعها «ان عهدا لو تعلمان ذميما » فقال :

قد مررنا بالدار وهي خلاء فبلينا طلولها والرسوما

وسألنا ربوعها فانصرفنا بسقام وما سألنا حكيما

كنت ارعى النجوم حتى اذا ما فارقوني امسيت ارعى النجوما »

اما الامدى فقد اشار الى بعض اغراضه . وفصل كثيرا في بعض معانيها خصوصا ما تعلق منها بالوقوف على الديار وما يتعلق بها من تعفية وبكاء وسؤال ودعاء ووصف وغير ذلك «٥» .

ولعل هناك شيئا مهما ، نحاول ان نغلق البحث في الاشارة اليه ، ذلك الشيء هو اختيارات ابي تمام التي لاتقل شهرة عن شعره . وما اهتمام النقاد في

(١) الجرجاني ، الوساطة ، ص٦٩ .
(٢) العمدة ، ابن رشيق ، ٢/١٤٨ .
(٣) ابن رشيق ، العمدة ، ٢/١١٩ .
(٤) ابن الاثير ، المثل السائر ٢/١٠٤ .
(٥) انظر بشأن ذلك كتاب الموازنة .

الحديث عنها . وما عناية الشراح بشرحها . والتعليق عليها . ودراسة الدارسين لها الا برهان اكيد على دقة ذوق الشاعر وطول باعه في معرفة الشعر القديم .

وقد اشاد الباقلاني بهذه الاختيارات حين قال «١» : « في الاختيار ماسلكه ابو تمام من الجنس الذي جمعه في «كتاب الحماسة» وما اختاره من «الوحشيات» وذلك انه تنكب المستنكر الوحشي ، والمبتذل العامي . واتى بالواسطة وهذه طريقة من يتصف في الاختيار ولا يعدل به غرض يخص » .

وبعد ، فهذا شعر ابي تمام في ميزان نقادنا القدماء . وهو — مهما اختلفت فيه آراء النقاد وتعددت به اتجاهاتهم — سجل حافل باروع الصور واعمق الافكار وهو ان دل على شيء فانما يدل على ان في تراث امتنا كنوزا ثمينة لاتفنى .

(١) الباقلاني ، اعجاز القرآن ، ص ١١٧ .